

الفصل السادس والعشرون

فقه اللغة في القرنين الأخيرين^(١)

فقه اللغة اليونانية :

امتاز اليونانيون في عصرهم الذهبي باستعمال لغة من أجمل اللغات بأقل شعور بقواعد النحو . ومن هذه الجهة كانوا على طرفي نقيض مع الهنود الذين شعروا شعوراً حاداً بالفروق الدقيقة في النحو والصرف (لاسيما تلك الأمور التي تمس المورفولوجيا والفونولوجيا في زمن متقدم جداً ، قروناً قبل الأمم الأخرى^(٢)) وقد أشاع القلق في هدوء اليونان وسعادتهم اللغوية علماء المنطق من أمثال پروتاجوراس الأبديري (القرن الخامس قبل الميلاد) والفلاسفة ، أمثال أرسطو وزينون الكتيوني (النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد) ، ولكن قواعد اللغة لم تبدأ في اتخاذ شكل معين حتى القرن الثالث . وقد بيّنا في الفصل الثالث عشر جهود نحاة الإسكندرية في القرن الثالث . ومن الواضح أنه لم يكن من اليسير درس النصوص القديمة ، كما فعل زينودوتوس وكالليماخوس وإراتوستيس دون حل صعوبات معجمية « قاموسية » أو نحوية . وفي النقد الأدبي نفسه مشكلات نحوية . ومن جهة أخرى فإن تحليل الجمل المنطقي الذي بدأه زينون تطور على أيدي الرواقيين الآخرين ، أمثال كريسيپوس السولوي (النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد) وديوجنيس البابلي (النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد) ، وقاد منطق الرواقيين إلى النحو . وقد أرسل ديوجنيس إلى روما سنة ١٥٦ كعضو في وفد أثيني ، وحمل معه الفلسفة الرواقية والمنطق والنحو اليوناني ، وبدور النحو اللاتيني . وتحليل أية لغة لا يقود إلى نحوها فقط ولكنه يقود إلى شعور عام بالنحو .

وفي النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ، أدت المنافسة الشديدة بين مدرسة الإسكندرية القديمة ومدرسة برجامة الحديثة إلى نشاط الدراسات الفيولوجية . وفي كلتا المدرستين كانت المكتبة مقر هذه الدراسات . وعلى رأس النحاة في الإسكندرية أريستوفانيس البيزنطي (توفي سنة ١٨٠ ق.م.) وأريستارخوس الساموثراكي (حوالي ٢٢٠ - ١٤٥) .

وقد أعد أريستوفانيس من هوميروس ومن أصل الآلهة . لزيادة طبعات أفضل . وكان أول من جمع أشعار بندار ونشرها وقام بتحقيق مسرحيات يوربيديس وأريستوفانيس ووضع قاموساً يونانياً Lexeis . وقام ببحوث في القياس والشذوذ في النحو .

وأكبر دعامة لشهرته ابتداعه (أو تحسينه) لوسائل وضع النبرات والترقيم ومن الخطأ أن يظن أنه ابتدع النبرات والترقيم نفسيهما . فهذه قديمة قدم استعمال الناس لغة الخطاب . ومن المحال أن ينطق أحد نطقاً صحيحاً وأن يفهم بوضوح دون وضع النبرات وتجميع الألفاظ وتقسيم الجمل . وحين صارت اللغة أشكالاً مكتوبة ، أصبح من الضروري . أو على الأقل من الملائم ، تبين نبرات الألفاظ وتقسيم الكلمات بواسطة الرموز ، فهل كان أريستوفانيس أول من فعل ذلك قطعاً ؟ ربما كان الجواب بالنفي ، والراجح أنه تفوق على من سبقه وكان أكثر دقة .

كانت هذه التغييرات الجديدة من الأهمية بمكان ، وفي وسع أي باحث أن يلترك بسهولة إذا اضطر أن يقرأ نصاً بدون ترقيم أو حروف كبيرة (مثال ذلك في اللغة العربية) (٣) .

وجدير بالذكر أنها لم تنل قبولا مدة طويلة . وأقدم المخطوطات اليونانية واللاتينية ليست خالية من الترقيم فحسب ، بل ومن الفواصل بين الكلمات وهناك مخطوطات متأخرة ترجع إلى القرن الثالث عشر ولا ترقيم فيها . أما من قاموا بنشر الطبقات الأولى فقد حاكوا المخطوطات وألفوا معظم علامات الترقيم والفواصل بين الكلمات . ولم تستخدم الفواصل بوجه عام إلا بعد ستة

عشر أو سبعة عشر قرناً من وفاة أريستوفانيس ، حين عرفت بدرجة كافية واستقرت في فن الطباعة .

ولا يرجع هذا التأخير الطويل إلى مجرد الكسل ، بل إلى سيطرة الرواية الشفوية على الرواية المكتوبة . كانت الكتابة (والطباعة في أول ظهورها) طريقة لتمثيل اللغة الحقيقية (لغة الكلام) وكانت تستهدف إثارة المعاني في النفس بدلا من أن تكون تامة مفصلة . وهذا يصدق بوضوح في كتابة اللغات السامية التي لا تدمج الحروف القصيرة اللينة ، وتنطق ذلك بصورة أصدق جدا على لغات كاللغة الصينية ، وليس فيها إشارة ألبتة إلى كيفية النطق أو النبرات^(٤) .

ويبين الهجاء الإنجليزي عدم الكفاية الأساسية للغة المكتوبة إذا قورنت بلغة الخطاب ، على الرغم من أن اللغة الإنجليزية قد تطورت تطورا كبيرا في أنحاء كثيرة . فهناك كثير من الكلمات الإنجليزية لا يستطيع أجنبي أن يرفع صوته عند قراءتها ، إذا لم يكن يعرف من قبل كيفية النطق بها .

خلف أريستارخوس الساموثراكي أريستوفانيس في رئاسة المكتبة ، وكان مسنأ ، حوالي ١٨٠ ق.م . ثم رحل إلى قبرص ، حيث توفي حوالي سنة ١٤٥ . كان أولا وقبل كل شيء ناقداً أدبياً وضع شروحا hypomnēmata, syngrammata على الكتب الكلاسيكية . وقارن اللهجة الهوميرية باللهجة الأتيكية . وهذه المقارنات تسم الكلمات نفسها Lexicography أو ترتيبها أو تعريفها ، أو تكوين الجملة Syntax . وقد ميز بروتاجوراس جنس الأسماء ، وبعض الأزمنة والصيغ . أما أرسطو فعرف ثلاثة أجزاء من الكلام : اسم - وفعل . والتكلمة . وعرّف أريستارخوس ثمانية أجزاء : اسم (ونعت) . وفعل واسم فاعل أو مفعول ، وضمير . وأداة تعريف . وظرف ، وحرف جر . وحرف عطف .

وفي أثناء ذلك كان كراتيس المالوسي يقوم بمحوث مشابهة في برجامه ، وكان لا بد له أن يصل إلى النتائج نفسها . وزاد ذوقه النحوي بمقارنة اللغتين اليونانية واللاتينية . وفي الواقع لا مناص من التفكير في النحو إذا ما استعمل

المرء لغتين . ويقال إنه أول من ألف في النحو اليونانى ، وينبغى أن يؤخذ هذا بحدز . تحليل لغة يشبه تحليل الجسم البشرى ، ومن العسير أن يقال متى بدأ ذلك ومتى انتهى . والنحو كالتشريح لم يبتدع فى وقت واحد بمجهود فردى وإنما عولج غير مرة وبأقدار صغيرة . كان عمل كراتيس بلا ريب عظيماً ، ولكننا لا نستطيع أن نقيسه بدقة لأن مؤلفه النحوى ضاع . وأقدم كتاب فى النحو وصل إلينا ، وضعه أحد تلاميذ أريستارخوس وهو ديونيسيوس ثراكس^(٥) (النصف الثانى من القرن الثانى ، ولد حوالى سنة ١٦٦) ، وازدهر فى الاسكندرية ورودس . فكتابه فى النحو techné grammaticae, ars grammatica كان نموذجاً لكل كتب النحو فى العصور المتأخرة ، لا فى اليونانية فقط ، بل فى اللاتينية والأرمينية^(٧) ، وبطريق غير مباشر فى جميع اللغات الهندية الأوربية الأخرى . يقول جلبرت مرى : « كان من أحسن الكتب المدرسية فى العالم ، وقد بقى الأساس والعمدة فى تعليم النحو اليونانى حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً ، وكان يستخدم فعلاً فى مدرسة ميرشانت تيلور عندما كان أحد أعمامى البعدين تلميذاً صغيراً هناك . وأدى ديونيسيوس للنحو ما أده إقليدس لعلم الهندسة . واستمر كتابه مدة تكاد تساوى المدة التى استمرها كتاب إقليدس^(٨) .

ويعتبر نشره فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد علامة مؤكدة على انتهاء عصر عدم التعلق بالنحو . وما كان أسعد الصبى الأثينى القديم الذى عاش زمناً يتكلم أجمل لغة فى العالم دون أن يقابى الآلام فى تعلمها كما نفع . وإتقان لغة يحتاج إلى جهود كبيرة ، وإذا لم نستعملها استعمالاً كافياً فنحن معرضون لنسيانها ، ولا بد أن نتعلمها ثانية . أما الغلام الأثينى فى القرن الرابع ، فلم يكن عليه أن يتعلم لغته الأصلية ، ولم يكن من الممكن أن ينساها .

وتسببت قصة وضع النحو القديم فى إغفاله لاثنين من فقهاء اللغة يذكرهما الناس لأعمال جليلة أخرى ، وهما : ديميتريوس الاسكيبسى وأبولودوروس

الأثيني . ولعلهما أقرب إلى علم الآثار منهما إلى علم النحو .

ديميتر يوس (حوالى ٢٠٠-١٣٠) ازدهر في سكيبيسيس من أعمال طروادة ، وكتب تعليقا على ثبت السفن في هوميروس (إلياذة، ٢، ٨١٦-٨٧٧) ، وكان يسميه التنظيم الطروادى Tröicos diacosmos^(٩) ويقع في ثلاثين كتاباً ، وكان مصدر الكثير من المعلومات القليلة الحدودى . أما أبولودوروس الأثيني فكان تلميذاً لأريستارخوس السكندرى ، ترك الإسكندرية سنة ١٤٦ . ولعله استقر في برجامة بدليل أنه أهدى أهم مؤلفاته : « كرونیکا » ، إلى أتالوس الثانى فيلادلفوس (ملك برجامة ١٥٩ - ١٣٩) ، وقد ألفت مشروحاً على هيروس ودراسات في الاشتقاق والجغرافيا والأساطير ، ويختلط كتابه في الميثولوجيا ، عن الآلهة برسالة أخرى في الميثولوجيا مسماة مكتبة أبولودوروس وقد وضعت بعده بقرنين على الأقل .

وكثيراً ما ساعد أولئك الذين يتحدثون أكثر من لغة على زيادة الإحساس اللغوى في العالم اليونانى الرومانى . كان على المثقفين في الغرب أن يعرفوا لغتين اليونانية واللاتينية ، أما في الشرق فلم يعرفوا دائماً اللاتينية ، وكانوا يلمون باللغات الشرقية . وزعم إنيوس أن له ثلاثة أرواح^(١٠) ؛ لأنه كان يستطيع التحدث بثلاث لغات ، اليونانية والأوسكية واللاتينية . وكانت لغته الثانية الأوسكية ، أكثر اللهجات الإيطالية قبولا ، لأنها كانت مستعملة في أرجاء إيطاليا الجنوبية . أما اللاتينية التى أصبحت اللغة الرسمية لروما ، فقد كانت في مبدأ الأمر محدودة جداً من الناحية الجغرافية . وقد بقيت الأوسكية تستخدم حتى بعد أن هزم الأوسكى أو الأبيكى Osci or Opici وأصبحوا في طى النسيان . وبقيت حية في روما نفسها في القصص الأتيلانية Fabulae Atellanae وهى روايات كوميدية ريفية ، مرحة جداً ، وبديئة ، تستخدم فيها الأوسكية وكانت رائجة لدى عامة الشعب .

وإذا كان لإينيوس أرواح ثلاث ، فكم كان عدد أرواح ميثريداتيس الأكبر ؟ ربما كان يعرف ما يقرب من خمس وعشرين لغة !! والحق أن

جيليوس يجبرنا أن ميثريداتيس كان يتكلم لغات الأمم التي أخضعها . أو كان على الأقل على اتصال بها وعددها خمس وعشرون . وقد يبدو ذلك محالاً في نظر الرجل الأمريكي الذي لا يعرف إلا لغة واحدة . ولكنه بكل بساطة انعكاس لتعدد اللغات المنتشرة في الشرق الأدنى . استمع إلى شهادة بليني عن مدينه ديوسكورياس من أعمال كونجيس :

كانت المدينة الكونحية ، ديوسكورياس الواقعة على نهر أنتيموس والتي هجرها أهلها الآن - شهيرة في يوم ما ، حتى إنه نقلنا عن تيموسثيس^(١١) كان فيها ثلثمائة قبيلة تتكلم لغات مختلفة اعتادت على التخاطب بها ، وكان تجار روما يقومون بأعمالهم هناك بمساعدة هيئة من الترجمة يبلغ عددها مائة وثلاثين مترجماً^(١٢) .

وعلى ذلك ليس من المدهش أن يتقن ميثريداتيس خمساً وعشرين لغة . لقد جعلته الظروف يجمع اللغات كما اضطرتة إلى أن يجمع النباتات والسموم والمعاجين والترياقات . وقد تألأت شهرة ميثريداتيس الذي يتكلم لغات كثيرة إبان عصر النهضة . وعندما نشر العالم الطبيعي العظيم كونراد جيسنر بحثه في اللغات أطلق عليه اسم ميثريداتيس^(١٣) . وكان هناك اثنان من علماء النحو اليوناني الممتازين في عصر أغسطس ، هما : ديونيسيوس الهاليكارناسي وديديموس^(١٤) .

وقد وفد ديونيسيوس من هاليكارناسوس ولمع في روما ، وسبق أن تحدثنا عن كتابه « تاريخ روما » Rhomaice archaiologia إلا أنه كان قبل كل شيء أديباً وعالماً من علماء الخطابة والنحو ، أجهد نفسه ليكفل صفاء اللغة اليونانية . وربما كان أول ناقد مبرز في عصره ، وقد ألف كتباً في مزايا الخطباء القدامى ومميزات ثوسيديديس وأفلاطون وغيرهما (وإن كان لا يحب أسلوب أفلاطون) ، وكتباً أخرى في ضرورة محاكاة المؤلفين المحيدين ، واختيار الألفاظ ، وأحسن ترتيب لها . ولم يكن يكفي في رأيه أن يعرف المرء اليونانية بل ينبغي أن يعرفها جيداً ، وإن لم يكن ذلك ميسوراً . كان ديونيسيوس

الهاليكارناسى من أحسن الذين تصدوا للدفاع عن اللغة اليونانية في وقت تعرضت فيه للخطر بسبب إقبال الرومان عليها وإقبال أمم أجنبية أخرى.

حمل ديديموس لقب « ذو الأمعاء البرونزية » Chalcenteros بسبب جده واجتهاده الذى فاق كل جد . وكان يدافع فى الإسكندرية عن الأمر الذى كان يدافع عنه ديونيسيوس . وقد فسدت اللغة اليونانية فى الإسكندرية أكثر منها فى روما ، إذ أساء استعمالها قوم جهلة . وقد وضع ديديموس بحثاً فى الأدب اليونانى ووقف جهوده على نشر هوميروس وثيوسيديديس والخطباء القدامى .

فالعامل الذى كان يناضل من أجله رجال من أمثال ديونيسيوس وديديموس يمكن أن يقارن بما يقوم به إنجليز أو فرنسيون للمحافظة على الأدب الإنجليزى أو الفرنسى على أعلى مستوى فى بلاد نائية وهو عمل شاق جداً . وإن كانت مزاياه عظيمة . لأن الأدب الجيد أقوم سبيل لنشر الحضارة .

وقف الباحثون اليونانيون السابقون جهودهم على الدفاع عن اللغة والثقافة اليونانية وشرحها فى مصر وآسيا بين أناس لغتهم الأصلية هى اليونانية ، وإن انحطت بتأثير البيئة الأجنبية^(١٥) ، أو بين الرومان الذين لم تكن اليونانية بالنسبة لهم إلا لغة أجنبية . وهناك فئة ثالثة يجب أن ننظر فى أمرها ، أعنى اليهود الذين انتشروا فى جميع أنحاء العالم اليونانى الرومانى ، ولا سيما فى المدن الكبرى فى مصر وسوريا ، وفى روما ومدن أخرى فى الغرب . إلى أى حد استجاب اليهود للغة اليونانية ؟ لقد سبقت مناقشة هذا الموضوع عندما عرضنا للترجمة السبعينية Septuagint فى الفصل الرابع عشر ، والديانة اليهودية فى الفصل السادس عشر . ولكنه موضوع بالغ الأهمية جدير بأن نعود إلى بحثه مرة أخرى .

كان لليونانيين مكان الصدارة فى سوريا ، وكانوا يتحرقون شوقاً إلى الدفاع عن الحضارة الهلنستية . وقد حمل أحد حكامهم ، انطيوخس الرابع إبيفانيس لواء الهلنستية إلى درجة أشعلت الثورة المكابية (فى سنة ١٦٨) . وقد نجح

ديونيسيوس (ولد حوالي ١٦٦) كان جاراً لهم وجهوده ربما كانت من أحسن ما عرف في الإسكندرية ورودس حيث ازدهر^(١٦).

وفي قيصرية^(١٧) ، وهي مدينة بناها هيرود الأكبر ، كان هناك يهود يقرءون صلوات : « اسمع »^(١٨) . . . باللغة اليونانية . . . فضلاً عن وجود أكاديمية للفلسفة اليونانية في فلسطين. يقول رابان سيمبون بن جاماليل الحاخام : « كان هناك ألف شاب في بيت أبي ، خمسمائة يدرسون القانون (اليهودي) ويدررس الخمسمائة الآخرون الفلسفة اليونانية^(١٩) .

وكان رؤسائهم يعرفون اليونانية معرفة لا بأس بها ، ولم تكن معرفة الجماهير اليهودية أجل من معرفة من يتخاطبون باليونانية ممن يقيمون في الشرق ، ويدل على انتشار الحضارة الهلنستية بين اليهود في الشرق عدد كبير من الآثار اليهودية والتحف الفنية التي تحمل طابع ذلك العصر^(٢٠) ، ووجود كلمات يونانية كثيرة في المؤلفات العبرية^(٢١)

وقد استخدم يهود كثيرون النثر اليوناني في الكتابة ، ونظم بعضهم شعراً باللغة اليونانية . ومن أمثلة ذلك فيلون الأكبر الذي كتب ملحمة عن بيت المقدس Peri ta Hierosolyma . وألف ثيودوتوس ملحمة في تاريخ شيشيم^(٢٢) Shechem ووضع حزقييل تراجيدية عن الخروج Exodus^(٢٣) ومن المحتمل أن هؤلاء الشعراء ازدهروا في القرن الثاني قبل الميلاد . لاحظ أن الأول والثاني يحملان اسمين يونانيين كما كان الشأن بالنسبة لكثيرين غيرهم من اليهود في ذلك الوقت .

وكثيراً ما كان اليهود في تشتتهم في الغرب ، حتى في روما ، يتقنون اللغة اليونانية أكثر من اللاتينية .

فقه اللغة اللاتينية

كانت الشعوب التي تتكلم اللاتينية بطيئة جداً في تطبيق قواعد النحو التي وضعها ديونيسيوس تراكسي على واقع لغتهم ، ولكنهم عندما فعلوا في النهاية ،

كان أخذهم واضحاً وضحاً كافياً . والاصطلاحات النحوية نفسها التي نعرفها (مضاف إليه ، مفعول به ، مصدر ، وهلم جرا) في اللغة الإنجليزية ليست إلا ترجمة خاطئة لاصطلاحات يونانية . ومع ذلك لم يستمتع مؤلفو اللاتينية قط بالصفاء اللغوي الذي استمتع به اليونانيون الأول . وعلى أن هذا الصفاء نفسه دب إليه الفساد أثناء العصر الهلنستي . لا لمن يتكلمون اليونانية وحدهم ، ولكن لكل من حولهم . وفقد ذلك الفردوس إلى الأبد .

وأصبحنا لا نتعلم نحو اللغات الأجنبية فحسب ، بل نحو اللغة التي نتلقاها من شفاه أمنا ، علينا أن نعرف نحوها جيداً حتى يصبح جزءاً من كيانتنا ، وعندئذ قد ننسأه (أو ننظن أننا قد نسيناها) ، فبعد أن يبلغ الإحساس النحوي ذروته ، يقبع النحو الذي تعلمناه في اللاشعور ، وعندئذ نملكه حقاً . ألا ينطبق ذلك على جميع فروع المعرفة ؟

ولنعد إلى اللغة اللاتينية : فن الواضح أن كل روماني حاول أن يتقن اللغة اليونانية ، وكل يوناني درس اللغة اللاتينية ، كان من المحتوم عليه أن يقوم بعمل مقارنات نحوية ، وأن يسأل نفسه أسئلة في النحو ، ويجب أن يفترض أن المربين اليونانيين ، وهم يشرحون لطلبهم النقاط الدقيقة في الأسلوب الأتيكي كانوا يعطونهم . عمداً أو دون عمد ، دروساً في النحو . ولهذا يبدو كسل النحاة اللاتين النسبي أو تباطؤهم أمراً مدهشاً .

لم تدرس غالبية الرومان اليونانية ، إلا أنهم كانوا أذكاء ، أو عبارة أدق إذا كان ذكاؤهم موجهاً توجيهاً صحيحاً . أيقظت المقارنة بين اللغة اللاتينية واللهجات الإيطالية المختلفة حساسيتهم الفيلولوجية . وكثيراً ما ينسى المرء أن اللغة اللاتينية في أول نشأتها كانت لهجة منطقة صغيرة نسبياً ، مدينة روما وإقليم لا تيوم . ثم زادت تلك الرقعة تدريجياً واتسعت بعد انتصار الرومان على الإيبطالين والأقطار الأخرى . وليس معنى هذا أن اللاتينية حلت دفعة واحدة محل اللهجات المحلية . ولم يكن ذلك ممكناً ، أو كان حلوها كالمألوف بطيئاً ، بدأت على مراحل في أماكن مختلفة تبعاً لتاريخ الفتح ، وسارت ببطء أكبر

في الأقاليم التي عظمت فيها المقاومة . وكان عليها أن تحل محل اللهجات الإيطالية مثل الأوسكية والأومبرية واللهجات غير الإيطالية مثل الأترسكية والليجورية ، وخارج إيطاليا كان عليها أن تنافس الكلثية والايبرية والليبية والبنونية وكثيراً غيرها .

ولما كانت اللاتينية هي لغة الإدارة ، كان على كل مواطن روماني أراد الالتحاق بإحدى الوظائف في الحكومة المركزية أو المقاطعات أن يتعلمها . وكانت أفضل مدرسة لها هي الجيش الروماني الذي جند عسكره من كل ولاية . فضلا عن أن الضباط والموظفين والتجار الرومان استقروا في الأقطار الأجنبية بعد فتحها بفترة قصيرة . ونقلوا معهم لغتهم وأخلاقهم وعاداتهم . وعندما جاء المسيح ، كانت هناك لهجات كثيرة ما زالت حية ، ومع ذلك أصبحت اللاتينية لغة دولية لا مجرد لغة قومية .

ومع كل الاعترافات كانت دوليتها أسرع من اليونانية ، وإن كانت لم تعمر مثلها ، فالإيونانية ما زالت لغة حية إلى اليوم يتكلمها أناس كثيرون في جميع مدن العالم ، في حين نسيت اللغة اللاتينية ، فيما عدا بعض الكنائس والأديرة .

كان أول النحاة أو فقهاء اللغة من الرومان لوكيوس أيلديوس ستيلو برايكوينوس الذي ازدهر في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد . وأصله من بلدة لا نوفيوم من أعمال لاتيوم . وتكلم اللاتينية منذ طفولته . وكان من علماء الآثار والنقاد . كتب شروحا لغوية لقانون الألواح الاثني عشر^(٢٤) وكتابات قديمة أخرى ، ونشر طبقات محققة من مؤلفات إنيوس ولوكيلوس . وباختصار كان ستيلو أول باحث بدأ في روما ما كان يقوم به نحاة اليونان في الإسكندرية منذ قرن . وتعلم عليه كل من فاروشيشرون . واستمد تفكيره من النماذج اليونانية ولا سيما منطقة الرواقين ونحاتهم أمثال خريسيبوس السولوي (النصف الثاني من القرن الثالث ق.م) ، وهو نفسه من أتباع المذهب الرواقى .

ومن المبالغة أن يسمى ماركوس توليوس تيرو ، عتيق شيشرون ، وكاتم سره ، فقيهاً في اللغة ، وإن كان قد اخترع الاختزال في اللغة اللاتينية ، وعاونته مذكراته المختصرة التي سميت فيما بعد رموز تيرو *notae Tironianae* على الاحتفاظ بخطب شيشرون وكتابات الأخرى . ومن الطبيعي أن أى كاتم سر ذكى ، بدون إملاء مستمرّاً في زمن طويل أو مقيد ، يحاول ابتداء بعض الوسائل التي تسهل عليه عمله . وقد كتب تيرو رسائل شخصية *Epiostulae* وألف كتاباً في اللغة اللاتينية لا نعرف عنه شيئاً إلا عنوانه الجذاب :

De usu atque ratione Linguae Latinae (في استعمال اللغة اللاتينية

وفلسفتها) .

ونستطيع أن نتحدث في اطمئنان عن فارو صاحب الكتاب العظيم في اللغة اللاتينية *De lingua Latina libri XXV* وهو أحد كتابين وصلنا إلينا (والآخر في الزراعة) ، ولسوء الحظ لم يصلنا إلا قسم من الأول . وصلتنا خمسة أجزاء من الخامس إلى العاشر (والخامس والسادس كاملان) ويمكن تصور خطة الكتاب العامة كما يلي . الجزء الأول مقدمة تلي نظرة عامة على الموضوع كله . والأجزاء من الثانى إلى السابع تشرح أصول الكلمات وانطباقها على الحسيات والمعنويات ، والثامن إلى الثالث عشر تعالج إعراب الأسماء والأفعال ، والرابع عشر إلى الخامس والعشرين تعالج قواعد اللغة ، والأجزاء : من الخامس إلى الخامس والعشرين مهداة إلى شيشرون . ثم وضع الكتاب كله قبل مقتل شيشرون بقليل سنة ٤٣ . لم يكن اشتقاق فارو للكلمات في أغلب الأحوال سوقياً ولا خيالياً كما صنع القدامى (في العبرية أو اليونانية) ؛ لأنه لم تتوافر لديهم معرفة لغوية كافية تسمح بمعرفة أصول الكلمات (٢٥) كان عقليته فلسفية على نحو الرواقيين . وربما كان أول من أدرك فكرة أسامية في النحو الحديث ، ألا وهي أن المستويات اللغوية *Le bon usage* ليست مطلقاً مستقرة ولا نهائية " *Consuetudo dicendi est in motu* " أى إن طرق الكلام في تحرك مستمر . وقد حفظ لنا كتابه مقتطفات مختلفة واصطلاحات

وأشكالا قديمة لولاه لضاعت ، ومن المؤلف حقا أنه لم يصلنا إلا خمسه فقط .
 وآخر نحوى نذكره ربما كان خارج إطارنا ، وهو فاريوس فلاكوس
 الذى ينسب إلى عصر أغسطس ، وإلى آخره ، كان عتيقا أثبت أنه مرب
 ممتاز ، يعهد إليه بالإشراف على تعليم أحفاد أغسطس . وضع كتابا
 تعليمية وأخرى فى النحو Libri rerum Etruscarum (فى الإترسكيين)
 De orthographia (الأشياء الجديدة التذكر) Libri rerum memoria dignarum
 (فى المهجاء وغيرها) . وأهم مؤلفاته نوع من المعاجم الموسوعية ، وكتابه هذا
 أقدم نوع منها فى اللاتينية De verborum significatu وهو محفوظ جزئيا
 فى مختصر بوميروس فيستوس P. Festus (القرن الثانى) وبولوس دياكونوس
 P. Diaconus (النصف الثانى) من القرن الثامن . وقد نقل عنه بلىنى
 الأكبر (النصف الثانى من القرن الأول) بعض المعلومات ، وبذا وصلت إلينا .

شكل ١٠٧ - فارو (النصف

الثانى من القرن الأول ق . م .)
 De Lingua Latina طبعة بومبيوس لايتوس
 (١٤٢٥ - ١٤٩٨) ، الذى أسس
 الأكاديمية الرومانية ، وكان على رأس
 علماء الإنسانية فى زمانه . تمتت
 الأكاديمية الرومانية بعصر ذهبي تحت
 رياسة بومبيوس ، فى أثناء تولي البابا
 ليوالاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) . وقد
 كانت إحدى ضحايا نهب روما الذى
 قام به شارل كوينت فى ١٥٢٧ .
 (كوارفو ٢٢ سم ، ٨٤ ورقة)
 (روما : جيورجيوس لاوير بدون
 تاريخ) ومن المحتمل أن تاريخها هو
 سنة ١٤٧١ . أول صفحة من نص
 فارو . وحرف Q الكبير كتبه بالمداد
 الأحمر رسام .

Q. VARRONIS DE LINGVA LATINA



Venadmodū uocaba effere iposi
 ta rebus i lingua latina sex libris expo
 nere institui. De his tris ante hūc fe
 ci quos Sepcimo mli-in quibus est
 de disciplina qua nocte et hmoiogie
 Quē cōtra ei dicerent uolu nire pri
 mo: quē pro ea fecendo: quē de ea tenio. In ris ad us
 scribam a quibus rebus uocaba inposita sint in
 lingua latina: & ea quē sunt in cōsuetudine apud pos
 ras: cui uisitationēq; uerbi natus: sicut dicitur: a qua re:
 & in qua re uocabulū sit inpositū. Itaq; a qua re. Itē per
 rinas: cū se quāre ostendunt esse a prendo-in qua re
 sit inpositū dē cū demonstratur: i q; nō debet pēdi & per
 tendē p̄naciā esse. Quod i quo oportet manet si in
 eo perit p̄naciā sit priorē illā partē ubi ear & unde
 sint illa uerba scruantur. greci uocant etimologian .
 Illā alterā de quibus duabus rebus in his libris. pri
 scie dicit: sed ex illis de posteriore. Quē ideo sum ob
 scura q; neq; omnis inpositio uerbor; extat: q; uocabula
 quāddā delcūit: nec quē extat sine modo oīs inposita:
 nec quē recte est inposita cuncta manēt. Multa enī uer
 ba literis cōmptatis sunt interpellata: neq; oīs origiē
 nostrē lingue. Euenaculis uerbis. Et multa uerba ali
 ad nunc ostēdunt: aliad ante significabāt ut hostis. Ni
 tū eo uerbo dicebāt peregrinū: qui suis legibus utere
 nunc dicitur cū quē nūm dicebant peruellū. In quo q; e
 nere uerbor; uia cāssa erit illis nūm tūc uideri possit

وأقدم كتاب فى النحو اللاتينى وضع فى زمان متأخر (حوالى ٦٧ - ٧٧)

ألفه كوينتوس ريميوس بالايون Q.R. Palaemon (النصف الثاني من القرن الأول) . وهو في الغالب عتيق أو يوناني ، واسمه يؤذن بأنه يوناني . وإذ أن فلم يستقر النحو اللاتيني قبل العصر المسيحي ، رغم المثل البارع الذي ضربه يوناني آخر هو ديونيسيوس ثراكس .

وفي الوقت الذي فتح فيه الرومان العالم وخلدت اللاتينية في مؤلفات أدبية بلغت الذروة ، لم يكن تحليلها قد تم بعد . وبقيت مفرداتها غير كافية وكان كتاب الرومان لا يزالون يعتمدون على اليونان . كما تحقق في أحوال كثيرة على يد فلاسفة كشيرون أو مؤلفون في العلوم والفنون أمثال قتروقيوس . ومن العسير معالجة الفلسفة أو الفنون دون استخدام ألفاظ يونانية ، وكان أعظم شعراء الرومان ينتحلون من النماذج اليونانية .

ويوضح ذلك صعوبة التأليف في النحو ، كما يبين بطء الرومان في الاقتراب منه . واليونانيون أنفسهم ما كانوا يستطيعون إتقانه لو لم يدفعهم ازدياد الصبغة العالمية وكثرة اللغات التي يتحدثونها ، ومع مضي الزمن أصبح الشعب الذي يتكلم اليونانية عاجزاً يوماً بعد يوم عن التحدث بالفصحى دون جهود مستمرة ، كأجانب الذين كانوا يتعلمون اليونانية بمشقة . وبصورة غير طبيعية . كانوا في حاجة إلى كتب في النحو وإلى المفاهيم والأدوات الأخرى . وعلى هذا فلا غرو أن رأى هذا العصر ظهور علم النحو .

وعلى رجال العلم ألا يظنوا أن ذلك كان عملاً صغيراً . وبطبيعة الحال لا يعد وضع كتاب نحو في لغة معروفة عملاً علمياً اليوم . أما واضعو النحو الأول أمثال ديونيسيوس ثراكس . أو سلفه ديوجنيس البابلبي وكراتيس المالوسي الذين حاولوا أن ينسقوا نتائج تطور طويل . فقد قاموا بعمل علمي ذي أهمية ضخمة ومزايا كبيرة والكشف عن التكوين المنطقي للغة ما عمل علمي يشبه الكشف عن تركيب الجسم التشريحي ، ولم يظهر الوعي اللغوي إلا تدريجياً ، وبالتالي كان الكشف عن تكوين اللغة المنطقي بطيئاً جداً ، دون ذكر أسماء من قاموا به .

ووضع أول نحو للغة ما يعتبر عملاً علمياً ، وإن كان قليل الأهمية .
 وفقه اللغة الذى يضطلع بهذا العبء يقدر مقدماً أن لكل لغة نحواً ، ويعرف
 بجلاء ما هو بصده . ومن الممكن مقارنته بالباحث فى علم الحيوان الذى يشرح
 لأول مرة حيواناً عثر عليه حديثاً . فكل الأنسجة والأعضاء متشابهة فى نظره ،
 وهى معروفة من دراساته السابقة ، وتشريح هذا الحيوان ما هو إلا صورة
 أخرى لتشريح كثير غيره . وباختصار إن وضع كتاب فى النحو لا يمكن
 مقارنته ألبتة بوضع علم النحو نفسه ، على نحو ما اضطلع به نحاة اللغة
 السانسكريتية واللغة اليونانية الأول .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن المحاولات العلمية كيفما كانت تؤدى إلى
 شىء من الدقة فى البحث العلمى . وكل بحث علمى لا يستغنى عاجلاً أو
 آجلاً عن ألفاظ وتعبيرات خاصة ، ويكشف عن أفكار جديدة لا بد أن
 تجد لها تعبيراً وافياً . ولا يكتفى أن يستخدم العالم لغة صحيحة ، بل لا بد له
 أن يعرف بالدقة خواص آلاته وحدودها ، واللغة إحدى هذه الأدوات ،
 وعليه أن يتأكد من قدرته على التعبير عن أفكاره بدقة وفى غير إبهام . ومن
 الضرورى أن يتضمن تقدم العلم تحليل اللغة وتحديدتها تحديداً كافياً . وعلى هذا
 كان وضع النحو خطوة أساسية فى تطور العلوم .

كان إقليدس وهيروفيلوس وكراتيسى وهيبارخوس وديونيسيوس ثراكس
 أبناء بيئة واحدة . اتجه جميعهم للاستطلاع وجهات شتى ، وأدوا واجبات
 مماثلة .

تعليقات

(١) هذه تكملة للفصل الثالث عشر .

(٢) انظر تعليقاتي على ياسكا (القرن الخامس ق . م .) وبانيبي (النصف الأول من القرن الرابع ق . م .) . ونحو (قواعد اللغة) السنسكريتية لم يكن معروفاً خارج الهند قبل نهاية القرن الثامن عشر ، ولهذا لم يكن من المستطاع أن يؤثر في النحو الأوربي قبل ذلك . أما تأثيره في تطور النحو المقارن فقد كان كبيراً في القرن التاسع عشر ، ولكن هذه مسألة أخرى . سبق نحاة اللغة السنسكريتية العالم في دراسة الأصوات phonetics ولكنهم لم يكتشفوا حروف الهجاء ، وإنما كان ذلك من عمل الساميين 111 — 1909 . Vol I, pp. وكانت الرواية الشفوية (ولا تزال) قوية في الهند على شكل غير عادي .

(٣) يمكن معاونة القارئ على تصور الصعوبات التي يسببها عدم وجود ترقيم وعدم ترك مسافة بين الكلمات إن حاول فك طلاسم القطعة التالية :

“thetheoryofrelativityisintimatelyconnected withthe theoryofspaceandtimeishalltherefore beginwithabrief investigationoftheori — giofourideasofspaceaand time althoughindo ingsoiknowthatiintro — duceacontrroversialsubjecttheobjectofallsciencewhethernatural — ciencecarpsy chology is tocoordinateourexp erienecesand toobring themintoallogical systemhowareourcustomary ideasofspaceaandtimereLATEDtothecharacterofourexp erien — ces” Albert Einstein, The meaning of relativity (Princeton : Princeton University Press, 1945), opening paragraph.

(٤) نطق الحرف الصيني يمكن أن يهتدى المرء إليه بالعنصر الصوتي الذي يحتوي عليه (ص ٧٣ > ١ من القسم الأول) .

(٥) ثراكسي أو ثراكوس تعني تراقيا . ولكن هذا لا يستتبع أنه هو نفسه ولد في تراقيا ، فقد يكون قد ورث الاسم عن أبيه أو عن أجداده .

(٦) قام جوستاف أوليج بطبع كتاب Ars grammatica (٢٢٤ صحيفة ، ليزريج ، ١٨٨٣) . ألفرد هليجارو Scholia (٧٠٣ صحيفة ، ليزريج ، ١٩٠١) . وقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية توماس دافيدسون ، انظر : Journal of Speculative Philosophy

(سانت لويس ، ١٨٧٤) ، ١٦ صحيفة .

Jacques Chahan Cirbied (1772 — 1834); grammaire de Denis de Thrace (٧)

tirée de deux MSS. arméniens de la Bibliothèque du Roi

(١٢٥ صحيفة ، باريس ، ١٨٣٠) ، النص باللغات الأرمنية واليونانية والفرنسية .

(٨) Greek Studies by G. Murray (أكسفورد ، مطبعة كلاريندون ، ١٩٤٦)

ص ١٨١ .

(٩) ديموكريتوس الأبدري كتب رسالتين عنوانهما Megas Micros, diacosmos

(التنظيم الكبير والتنظيم الصغير) ، Diacosmos، تعنى الترتيب أو التفسير .

(١٠) « كوينتوس إنيوس اعتاد أن يقول إن له ثلاثة أفئدة ؛ لأنه كان يتكلم

اليونانية والأوسكية واللاتينية » أولوس جيلوس (النصف الثاني من القرن الثاني) لبالى

أتيكا ، ١٧ ، ١٧ . وهذا هو المرجع أيضاً عن الخبر التالي الخاص بكثرة اللغات التي

كان يتكلمها ميثريداتيس .

(١١) كان تيموستنيس أمير البحر في أسطول بطلميوس فيلادلفوس (٢٨٥ -

٢٤٧) ، وقد استعمل إيراتوستنيس وسترابون مؤلفاته في تقويم البلدان .

(١٢) التاريخ الطبيعي ، ٦ ، ٥ ، (طبعة لويب ، المجلد الثاني ، ص ٣٤٩)

كتب بلييني بعد موت ميثريداتيس بنحو مائة وثلاثين سنة ولكنه أشار إلى تيموستنيس

الذي ازدهر في القرن الثالث قبل الميلاد . وتقع ديوسكورياس في النهاية الشرقية للبحر

الأسود ، إلى الشرق من بونتوس وهي مملكة ميثريداتيس .

(١٣) ميثريداتيس (زيورخ ، ١٥٥٥) ، انظر كتابي :

Appreciation of ancient and medieval Science during the Renaissance

(فيلادلفيا : مطبعة جامعة بنسلفانيا ، ١٩٥٥) ، ص ١١١ - عالج جيسنر مائة

وثلاثين لغة ، بعدد اللغات التي كان لها مترجمون من الرومان في ديوسكورياس . .

وقد نشر Johann Christoph Adelung تحت نفس العنوان « ميثريداتيس » بحثاً أكثر

عمقاً (أربعة مجلدات في ستة ، برلين ، ١٨٠٦ - ١٨١٧) . وهذا هو السر في أن كلمة

ميثريداتيس كانت تعنى عند الكثيرين من الناس لغويات ، كما كان إقليدس يعنى

الهندسة .

(١٤) ازدهر ديونيسيوس من سنة ٣٠ إلى سنة ٨ قبل الميلاد . ديديموس ولد حوالي

سنة ٦٥ ق. م. ومات حوالي سنة ١٠ بعد الميلاد .

(١٥) كلمة أجنبية barbaric استعملت هنا على النهج اليوناني لتدل على أى شيء أو غير يوناني . كان من يتحدثون اليونانية في مصر وسوريا أقلية ضئيلة جدا ؛ ولكن كان هناك أناس كثيرون قادرون على الرطانة باللغة اليونانية الركيكة .

(١٦) على الرغم من المثل الذى ضربه ديونيسيوس ، لم يفكر يهودى ممن يتكلمون اليونانية في استنباط نحو عبرى من واقع اللغة العبرية . ولم يوضع هذا النحو إلا في عصر متأخر جدا تحت تأثير العرب ، وضعه Saadia Gaon (النصف الأول من القرن العاشر) . ويرجع ذلك إلى أمر مزدوج ، وهو أن النحو العبرى مختلف جدا عن النحو اليوناني وقريب جدا من نحو اللغة العربية .

(١٧) كانت قيصرية هذه على شاطئ السامرة (سماريا) ، وتبعد عن أورشليم ٥٥ ميلا ، إلى جهة الشمال الغربى . وقد أعاد بناءها هيرود الأكبر على مستوى كبير ؛ ثم أصبحت عاصمة ولاية يهوذا الرومانية أثناء ولاية المراقبين والنواب عن الإمبراطور .

(١٨) « اسمع . . . » مختارات من القطع القصيرة مأخوذة من سفر التثنية ، ٤ : ٩ - ١١ ، ١٣ - ٢١ ، وسفر العدد ١٥ : ٣٧ - ٤١ ، التى تعبر عن أهم مبادئ العقيدة اليهودية والاسم مأخوذ من أول كلمة من أول قطعة شمع . . . اسمع ...

(١٩) Saul Lieberman : Greek in Jewish Palestine (نيويورك ، ١٩٤٢) ص ١ . انظر أيضاً كتابه Hellenism in Jewish Palestine (نيويورك نفس جهة النشر السابقة ١٩٥٠) . وهذان الكتابان يعالجان الفترة التى تلت ظهور المسيحية . توفى Rabban Gamaliel الأكبر حوالي ٥٠ بعد الميلاد وكان معلم القديس بولس (أعمال الرسل ، ٢٢ : ٣) .

(٢٠) Ernst Cohn - Wiener : Die Jüdische Kunst (برلين ، ١٩٢٦) ، Franz Landsbergere, History of Jewish Art سينسيناتى : اتحاد الكنائس الأمريكية ، Erwin Ramsdell Goodenough : The Jewish Symbols in the Greco-Roman period, (٦ مجلدات ، كوارتو ، نيويورك ، بانثيون (١٩٥٣ - ١٩٥٦) .

(٢١) انظر دليل الكلمات اليونانية الذى وضعه Immanuel Loew in Samuel

Kraus : Griechische und Latinische Lehnwörter im Talmud.

(مجلدان ، برلين ، ١٨٩٨ - ١٨٩٩) .

(٢٢) Shechem أو Sichem بلدة قديمة ورد ذكرها في التوراة ، وهي أهم بلدان السامرة (سماريا) ، موطن يعقوب ، وفيها بئر يعقوب وقبر يوسف . وقد سميت فيما بعد نابلس أو نيابوليس .

(٢٣) Emil Schurer : Geschichte des jüdischen Volkes im Zeitalter Jesu Christi (ثلاثة مجلدات ، ليزيخ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٠٩) . ترجمة انجليزية في ثلاثة مجلدات قامت بها صوفيا تيلور وبيتر كريستي (نيويورك ، ١٨٩١) ، ص ١٥٦ - ٣٢٠ ، ولا سيما ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢٤) الألواح الاثنا عشر مجموعة من أقدم القواعد في القانون الروماني ، نقلت عن العوائد القديمة ، ومن العسير تأريخها ، إلا إذا قلنا إنها ترجع إلى أقدم حضارة رومانية وتدل على أن تطوراً حدث ، كانت ذروته القانون المدنى Corpus iuris الذى نشره جستنيان (النصف الأول من القرن السادس) .

(٢٥) فى اشتقاق الكلمات اليونانية واللاتينية بصفة عامة ، انظر Peter Barr Reid Forbes, Oxford Classical Dictionary ص ٣٤١ .